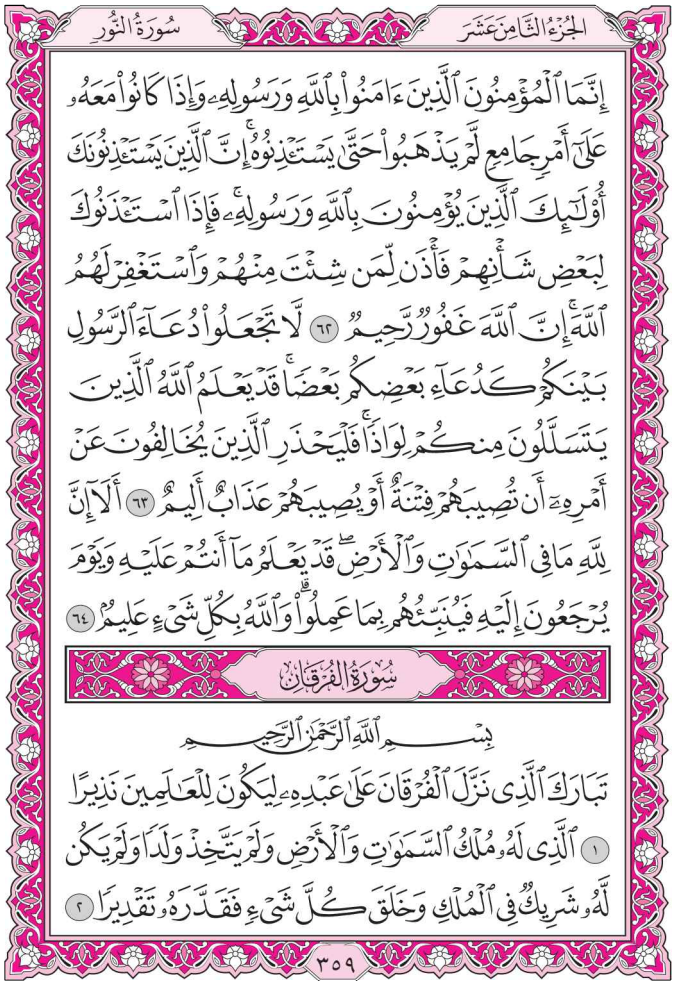

[٦٢] واعلموا أيها الناس أن المؤمنون الحقيقيين هم الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله ﷺ، وعملوا بشرعه، وإذا كانوا معك يانبي الله في أمرٍ يتطلب الاجتماع والحضور كالجهاد والمشورة ونحوها، لم ينصرفوا عنك ويتركوك إلّا بعد أن يستأذنوك في ذلك، وهؤلاء الذين يستأذنونك يانبي الله هم الذين يؤمنون بالله ورسوله حقًّا، فإذا استأذنوك لبعض أمورهم وحاجاتهم؛ فأْذَنْ لِمَن شئت منهم، وسل الله لهم غفران الذنوب وستر العيوب، إن الله كثير المغفرة لعبادهَ التائبين، رحيمٌ وسعتْ رحمته كل شيء.

[٦٣] نهىٰ جل وعلا عباده المؤمنين عند نداء الرسول ﷺ أن يقولوا له: يامحمد أو يامحمد بن عبدالله، كما ينادي بعضكم بعضًا، ولكن يجب عليكم أن تقولوا عند ندائه: يارسول الله أو يانبي الله، ثم أخبر سبحانه أنه عليم بالمنافقين الذين يخرجون من مجلس النبي ﷺ خفية بغير إذنه، يستتر بعضهم ببعض حتىٰ يخرجوا جميعًا، فليحذر الذين يخالفون أمر رسول الله ﷺ أن يصيبهم بلاء وكرب ويُقذف الشرك في قلوبهم، أو يصيبهم شر وعذاب أليم موجع في الآخرة.

[٦٤] واعلموا أيها الناس أن لله جميع ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا وعبادةً، قد أحاط سبحانه بجميع ما أنتم عليه، ويوم يرجع العباد إليه يوم القيامة فإنه يخبرهم بأعمالهم، ويجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب، والله بكل شيء عليم، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال وأحوال عباده وغيرهم.

سورة الفرقان

سورة الفرقان مكيّة وآياتها سبع وسبعون آية.

[١] بدأ جل وعلا السورة بتقديس نفسه فقال سبحانه: تقدس وتعاظم وتكاثر خير الله جل وعلا فهو مصدر البركات ومن ذلك أنه نزَّل القرآن علىٰ عبده ورسوله محمد ﷺ، الذي فرق به بين الحق والباطل؛ فإن من أجلِّ وأعظم بركاته علىٰ عبده محمد ﷺ الذي كمَّل مراتب العبودية وأتمها؛ أنه أنزل عليه هذا الكتاب المهيمن علىٰ كل الكتب السماوية، وأنزله ليكون رسولًا للثقلين الإنس والجن، ومخوفًا لهم من عذاب الله المعد للكفار والعصاة والمجرمين، وجعله سبحانه خاتمًا للأنبياء والمرسلين.

[٢] ثم وصف جل في علاه ذاته بصفات جليلة توجب له العبادة والطاعة، فمن ذلك:

أن له ملك السماوات والأرض خاصَّة لا ينازعه فيها منازع وهو المهيمن عليهما.

ومن صفاته: أنه لم يتخذ ولدًا، فهو منزه سبحانه عن ذلك، وفي هذا رد علىٰ اليهود والنصارىٰ، ومعلوم أن الخلق من البشر يفرحون بالولد ليخلفهم في عقبهم وذرياتهم وأملاكهم وليكون امتدادًا لذكرهم، والله سبحانه وتعالىٰ حي لا يموت غني عن العالمين كامل الغنىٰ ودائمه.

ومن صفاته: أنه لم يكن له شريك يشاركه في ملكه؛ بل هو المالك وحده لكل ما في الوجود.

ومن صفاته: أنه هو الذي خلق كل شيء خلقًا متقنًا بديعًا، وأعطىٰ كل مخلوق مواهب تخصَّه وتحفظ بقاءه إلىٰ أن ينتهي أجله؛ فتبارك الله رب العالمين.

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا
وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾
وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى
ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾
أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

[٣] يخبر جل وعلا بأن هؤلاء المشركين اتخذوا من دونه معبودات يعبدونها، وهذه المعبودات لا تقدر علىٰ خلق شيء؛ بل هي من مخلوقات الله، كما أنهم لا يقدرون علىٰ دفع الضر عن أنفسهم ولا جلب النفع لها، فكيف ينفعون أو يضرون غيرهم؟، وأيضًا هذه المعبودات لا تقدر علىٰ إماتة الأحياء أو إحياء الموتىٰ في الدنيا، ولا يقدرون علىٰ إخراج الناس من قبورهم وبعثهم يوم القيامة.

[٤] فضح جل وعلا افتراءات المشركين علىٰ النبي ﷺ، ومن ذلك قولهم: إنَّ هذا القرآن كذب وبهتان اختلقه محمد وأعانه علىٰ جمعه أناس آخرون من اليهود وغيرهم، وقد ارتكبوا بقولهم هذا ظلمًا عظيمًا، وزورًا كبيرًا.

[٥] ثم قال هؤلاء الكفار معللين افتراءاتهم: اعلموا أنَّ هذا القرآن ما هو إلا مجموعة أكاذيب وخرافات كانت مسطرة في كتب الأولين، أمر محمد أن تُكتب له، وهذه الأساطير تملىٰ عليه صباحًا ومساءً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[الأحقاف:١١].

[٦] وقل لهم مجيبًا يانبي الله: بل أنزله الله الذي يعلم حقيقة كل شيء، ولا يغيب عنه شيء - وإن دقَّ وخفي - في السماوات والأرض، إنه سبحانه كثير المغفرة لمن رجع وتاب، كثير الرحمة لمن استغفر وأناب.

[٧] واستمر المشركون في الكيد للرسول ﷺ؛ ومن ذلك: أنهم عابوا عليه صلوات ربي وسلامه عليه أنه يأكل الطعام كما يأكل عامة الناس، وأنه يمشي في الأسواق طلبًا للرزق كما يفعلون، ويقولون: هلا أرسل الله معه ملكًا يشهد علىٰ صدقه ويساعده، وينذر كل من خالفه بسوء العاقبة.

[٨] ولم يقف المشركون عند هذا الحد بل استمروا في كيدهم وتعجيزهم، ومن ذلك أنهم قالوا علىٰ سبيل التهكم والسخرية: هلَّا هبط عليه من السماء كنز من المال، أو هلّا يكون له بستان مُميِّزٌ وحديقةٌ غنَّاء يأكل منها، ويستغني بذلك عن طلب الرزق، وقصدهم بذلك صرف العامة السذج من الناس من الاستماع للقرآن، أو الاستجابة لدعوته ﷺ، قالوا ذلك وأكثرهم يعلم أن جميع الرسل الذين قبله كانوا بشرًا، وأنه لا يصلح أن يكون الرسول المرسل للبشر إلّا من البشر؛ لأنه هو الذي يفهمونه، وهو الذي يصلح أن يكون أسوة للمهتدين، ثم قال هؤلاء المتجاوزون لحدودهم - ظلمًا وعدوانًا -: يامن صدقتم محمدًا، إنكم ما تتبعون إلّا رجلًا قد غَلَبَ السحرُ عليه، وغيَّبَ عقله.

[٩] ثم خاطب الله نبيَّه محمدًا ﷺ مُسلِّيًا له فقال: انظر يامحمد كيف ضربوا لك هذه الأمثال، وقالوا في حقك هذه الأقوال النادرة ليتوصلوا بذلك إلىٰ تكذيبك، وصدِّ الناس عن الإيمان بك، فكان هذا سببًا في ضلالهم، وبعدهم عن الحق والصواب، فلا يجدون طريقًا يرجعون منه إلىٰ الحق.

[١٠] ثم قال عز من قائل: تبارك الله الذي لا إله إلّا هو، وتعالىٰ وتقدَّس سبحانه فهو إن شاء جعل لك خيرًا مما قالوه واقترحوه، ولجعل لك حدائق عظيمةً تجري الأنهار من خلالها وتحت قصورها، ولجعل لك قصورًا عظيمةً مزخرفةً، ولكنه سبحانه وتعالىٰ ادَّخر لك هذا النعيم في الآخرة؛ فهو خيرٌ وأبقىٰ.

[١١] واعلم يا نبي الله أن المشركين ما كذبوك لأنك تأكل الطعام وتمشي بالأسواق، وإنما الذي جرأهم علىٰ هذا الكلام وهذه المواقف العدائية هو تكذيبهم بيوم القيامة والبعث والحساب، وأنهم لا يريدون أوامر وتعليمات عبادية، ولا يريدون أن ينقادوا إلّا إلىٰ رغباتهم وشهواتهم؛ ولهذا أعد الله لمن كذب بالساعة نارًا عظيمة شديدة الاشتعال تسعر بهم.

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾
وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا
﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾
قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى
هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ
يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾
فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا
وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

[١٢] يخبر جل وعلا أن النار إذا رأت أهلَها من المشركين والظالمين والمكذّبين من قبل أن يصلوا إليها؛ فإنهم يسمعون صوت تغيظها عليهم، ويسمعون صوت غليانها، فتمتلئ نفوسهم كمدًا وحسرةً وخوفًا وذعرًا.

وهذه الآية تدل علىٰ أن الله أعطىٰ النار قدرة علىٰ معرفة المجرمين وعقابهم.

[١٣] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المجرمين يُلقىٰ بهم في نار جهنم الشديدة الحرِّ، في مكان ضيق، مقيَّدةٌ أيديهم إلىٰ أعناقهم بالسلاسل، وصدورهم ممتلئة حسرة وندامة، ثم بين سبحانه أنهم وهم في هذه الحال يدعون علىٰ أنفسهم بالويل والهلاك.

[١٤] فيقال لهم تبكيتًا وتحسيرًا: لا تدعوا اليوم علىٰ أنفسكم بالهلاك مرة واحدةً؛ بل ادعوا أدعيةً كثيرةً، فلن يفيدكم ذلك إلا همًّا وغمًّا وحسرة.

[١٥] وقل يانبي الله لهؤلاء المكذبين المعرضين: أهذا المصير الشنيع البشع خيرٌ أم مصير المتقين الذين جعل الله لهم جنات يدخلونها ويقيمون فيها إقامةً دائمةً لا تنقطع؟!

[١٦] ثم أخبر سبحانه أن لهؤلاء المتقين في تلك الجنات ما يطلبون وما يتمنون من أيّ نعيم أرادوا، وهم ماكثون فيها لا يخرجون منها أبدًا، وقد كان دخولُهم ومكثهم في هذا النعيم وعْدًا وعده الله إياهم، ولا أحد أوفىٰ بعهده من الله! نسأل الله الكريم من فضله العظيم.

[١٧] ويوم القيامة يحشر الله المشركين ومعبوداتهم من دون الله من الأصنام وغيرها، فيقول الله جل في علاه مخاطِبًا المعبودين علىٰ وجه التقريع لعابديهم: أأنتم أمرتم هؤلاء أن يعبدوكم معي، ويتخذوكم شركاء من دوني؟ أم هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم؟!

[١٨] فيجيب المعبودون قائلين: سبحانك ربنا، فإنا نُنزِهُكَ عمّا يقول هؤلاء الضالّون، فلا يصحُّ لنا، ولا يليق بنا أن يكون لنا من دونك أولياء نتولّاهم وتصرف لهم العبادة؛ فكيف ندعو غيرنا لذلك؟! ولكنك ياربنا متَّعْت هؤلاء الضالين وآباءهم، وأسبغت عليهم النعم فغرقوا في لذّات الدنيا وشهواتها، وانشغلوا بها عن توحيدك وذكرك والإيمان بك؛ فصاروا بذلك من الهالكين الخاسرين.

[١٩] ثم يقول جلَّ في عُلاه لهؤلاء المشركين العابدين غير الله -بعد أن تبرّأ من عبدوهم منهم-: هؤلاء الذين عبدتموهم، وزعمتم أنهم آلهة قد كذّبوكم فيما تقولون، فأنتم الآن قد حقَّ عليكم العذاب، فلا تستطيعون صرفه عنكم، ولا تستطيعون نصر أنفسكم، ولا يستطيع أحد أن ينصركم، ومن يظلم منكم بترك التوحيد؛ سيكون مصيره العذاب الكبير، ولن يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا.

[٢٠] يخاطب جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ مسليًّا له، ومُجيبًا إيّاه عن استهزاء المشركين به وبدعوته لأنه بشر، فيقول الله تعالىٰ: اعلم يانبي الله أنا ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا بشرًا يأكلون كما يأكل البشر، ويمشون في الأسواق، ولا يستغنون عن حاجاتهم البشرية، فلا يُحْزنك تكذيب هؤلاء المشركين واستهزاؤهم، وقد جعلنا بعضكم لبعضٍ فتنةً وابتلاءً واختبارًا، فاختبرنا الرسل بأقوامهم، واختبرنا الأقوام برسلهم، واختبرنا الغني بالفقير، والفقير بالغني، وهكذا، لنرىٰ: هل تصبرون وتنقادون للحقِّ أم لا؟! وكان ربك يانبي الله بصيرًا بمن يصبر فيستحق الثواب وينجو، وبمن لا يصبر فيستحق العقاب فيهلك.

* وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا
﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ
هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ
أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ
إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً
وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

[٢١] أخبر سبحانه وتعالىٰ أن المكذبين بالبعث قالوا علىٰ سبيل الكبرياء والتعجيز: هلا أنزل الله علينا الملائكة فتخبرنا بصدقك يامحمد، أو هلا نرىٰ ربنا ليخبرنا أنك نبي ورسول، فرد سبحانه علىٰ قولهم فقال: لقد أعجب هؤلاء المكذبون بأنفسهم المغرورة، وتجاوزوا في طغيانهم وكفرهم كل الحدود.

[٢٢] وحيث إن هؤلاء المشركين طلبوا نزول الملائكة ورؤيتهم؛ فاستجاب سبحانه لطلبهم، وأخبر أن الملائكة ينزلون بالعذاب والعقاب للمستحقين، وأنهم سوف يرونهم عند موتهم وفي قبورهم ويوم القيامة علىٰ حال لا تبشرهم بخير؛ بل إن الملائكة سوف تخبرهم أنه لا نجاة ولا فلاح لهم أبدًا، وأن الجنة محرَّمةٌ عليهم أبد الدهر.

[٢٣] ثم أخبر سبحانه أنه عمد إلىٰ أعمال المشركين التي عملوها للفخر كالصلة والبر وإغاثة الملهوف، والتي ظنوا أنها تنفعهم، فنسفها، وجعلها لا وزْن لها كأن لم تكن؛ لأن هذه الأعمال لم يصاحبها إيمانٌ، ولا إخلاصٌ ولا متابعة.

[٢٤] ثم أخبر جل وعلا أن أهل الجنة يوم القيامة هم أفضل مستقرًّا من أهل النار، وذلك أن مأواهم ومستقرهم ومكان راحتهم واضطجاعهم: جنات النعيم.

[٢٥] ثم أخبر سبحانه عن شيء من أهوال يوم القيامة الذي تشيب فيه الولدان، وتضع كل ذات حمل حملها، وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ، من شدة ما يرون، ومن ذلك أن السماء تفتح فيخرج منها سحاب أبيض، ثم تنزل الملائكة فيحيطون بالخلائق، ثم يأتي جل في علاه للفصل بين العباد، إتيانًا يليق بجلاله وعظمته.

[٢٦] ثم أخبر سبحانه أن في ذلك اليوم العظيم يكون المُلْك الحق الثابت الذي لا يزول للرحمن وحده، لا يشاركه فيه أحد؛ ولذا كان يومًا صعبًا وشديدًا وقعه علىٰ الكافرين؛ بسبب ما يرون من العذاب الأليم والعقاب الشديد.

ودل قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أن الله لطف بالمؤمنين برحمته فجعله يسيرًا عليهم بحيث لا يعانون شدّته وأهواله.

[٢٧] واذكروا أيها الناس حال هذا الكافر الظالم يوم القيامة، يوم يعض علىٰ يديه ندمًا وتحسرًا، قائلًا: ياليتني صاحبت رسول الله ﷺ، واتبعته، وسرتُ في الطريق الذي جاء به؛ لأفوز برضا الله وجنته.

[٢٨] ثم يتحسر نادمًا علىٰ أيامه التي أضاعها مع قرناء السوء يوم لا ينفع الندم، فيقول: ياهلاكي وياخسارتي ليتني لم اتخذ ذلك القرين السيِّئ صديقًا؛ لأن صداقته جرَّتني للفساد والإجرام والهلاك.

[٢٩] ثم يستمر في تحسره وندمه فيقول: لقد أضلني هذا الصديق عن القرآن والهدىٰ الذي جاء به النبي ﷺ، ثم أخبر سبحانه أن الشيطان كان دائمًا وأبدًا خذولًا للإنسان، صارفًا إياه عن الحق، ومحرضًا له علىٰ الباطل، ولهذا فالواجب علىٰ الإنسان الحذر منه بكل الوسائل بالاستعاذة منه، والمحافظة علىٰ الأذكار، والعبادات.

والحاصل: أن هذه الآيات الثلاث السابقة بينت مضار الصحبة السيئة، وكما يقال: الصاحب ساحب؛ وفي ذلك تحذير لكل عاقل حتىٰ لا يقع في فخ قرين السوء الذي قد يكون سببًا في دخول صاحبه النار.

[٣٠] ثم أخبر جل في علاه أن النبي ﷺ اشتكىٰ إلىٰ ربه انصراف قومه عن القرآن الكريم وامتثال أوامره، فقال: يارب إن قومي الذين أرسلتني إليهم تركوا هذا القرآن ولم يصدقوا به ورفضوا العمل به، وكان أبو جهل وأبو لهب يحذرون من يقدم إلىٰ مكة من الاستماع للقرآن، ويقولون: إن محمدًا صابئ، أي: خارج عن إجماعهم. فهذه الآية اشتملت علىٰ التحذير من هجر القرآن وعدم العمل به.

[٣١] ثم يسلي جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: وكما جعلنا مجرمي قومك يعادونك ويكذبونك، فكذلك جعلنا للأنبياء من قبلك عدوًّا من مجرمي أقوامهم؛ فلست وحدك الذي أوذي وَرُمِيَتْ دعوته بالأباطيل، لذا عليك أن تصبر كما صبروا، وكفىٰ بربك يانبي الله هاديًا ومرشدًا ومعينًا لك علىٰ أعدائك، وهذا من الابتلاء؛ فقلَّ أن تجد مصلحًا إلا وقد ابتلي بمن يحاربه، وما حدث لكثير من علمائنا ودعاتنا من الإيذاء والتعذيب والاتهامات الباطلة علىٰ مدىٰ التاريخ خير شاهد علىٰ ذلك.

[٣٢] ثم أخبر سبحانه أن الذين كفروا بالحق قالوا: هلَّا نَزَلَ هذا القرآن عليك يامحمد جملة واحدة، وليس كما نراه منجَّمًا، فرد جل وعلا عليهم فقال: لقد أنزلنا عليك القرآن يانبي الله مفرقًا حسب الوقائع والمناسبات، لنقوي به قلبك، وتزداد به طمأنينة، وإيضاحًا لكل نازلة في وقت حدوثها، وأيضًا بينا لك هذا القرآن تبيينًا واضحًا بتدرج شيئًا فشيئًا وعلىٰ تؤدة ومهل.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

[٣٣] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المشركين لا يأتونك بحجة أو شبهة يريدون تعجيزك وإحراجك إلا جئناك بالجواب الحق وبما هو أحسن تفسيرًا وبيانًا من شبهاتهم وأباطيلهم، فسر في طريقك وبلغ رسالتك ولا تلتفت إلىٰ مقترحاتهم وأباطيلهم.

[٣٤] واعلموا أن أولئك المشركين المكذّبين بالقرآن؛ يُحشرون يوم القيامة مسحوبين علىٰ وجوههم إلىٰ النار؛ تجرّهم الملائكة جرًّا وتسحبهم سحبًا، وأولئك الذين بهذه الحالة؛ شرٌّ منزلًا ومصيرًا، وأبعد عن طريق الحق والنجاة.

[٣٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل علىٰ موسىٰ عليه السلام التوراة فيها الهدىٰ والنور، وأرسل معه أخاه هارون معينًا وناصرًا له.

[٣٦] فقال لهما جل شأنه: اذهبا إلىٰ فرعون وملئه الذين كذّبوا بآياتنا الدالة علىٰ وحدانيتنا، فذهبا إليهم، فما كان من فرعون وقومه إلّا التكذيب والجحود والاستكبار؛ فأهلكناهم بالغرق إهلاكًا عظيمًا.

[٣٧] وأرسل جل وعلا نوحًا إلىٰ قومه فدعاهم للتوحيد ونبذ الشرك؛ فكذّبه قومه وجحدوا رُسُلَ الله، فكان عاقبتهم أن أغرقهم الله بالطوفان، وجعلهم عبرةً للمعتبرين، وجعلنا للظالمين الجاحدين عذابًا مؤلمًا شديدًا في الدنيا والآخرة.

[٣٨] وأهلك جل وعلا قوم هودٍ - وهُم عاد -، وقوم صالح - وهم ثمود -، وأصحاب الرسّ؛ لمّا كذّبوا الرسل، وأهلكنا أُممًا كثيرة من المكذبين، فكان الهلاك مصير كل من كذّب بالرسل، وفي هذا تنبيه وتحذير لأهل مكّة من التكذيب بمحمد ﷺ.

[٣٩] وجميع تلك الأمم السابقة أنذرناهم وأقمنا عليهم الحجج الواضحة، وبيّنا لهم الآيات والبراهين الدالة علىٰ الوحدانية، فلمّا جحدوا وكذّبوا كان مصيرهم الهلاك والدمار.

[٤٠] بعد أن ذكر جل وعلا الأمم التي كذبت الرسل من قوم نوح إلىٰ قوم لوط، ذكر قرية قوم لوط التي أمطرت مطر السوء، ثم وبخ الكفار الذين يمرون عليهم في رحلتهم للشام فلم يتعظوا ويعتبروا بما حل بهم من خراب ودمار، ثم ذكر علة كفرهم وعدم اعتبارهم بحوادث الأمم التي دمرت كعاد وثمود ومدين وغيرهم؛ بأنهم كانوا كافرين باليوم الآخر والحساب والبعث؛ لذلك تشبثوا بما هم عليه من كفر وفساد واتباع للهوىٰ والشيطان.

[٤١] وإذا رآك يانبي الله هؤلاء المكذّبون المعاندون - بدل أن يُؤمنوا بك ويتبعوك - أخذوا في الاستهزاء والسخرية والاحتقار قائلين: هل هذا هو الذي بعثه الله رسولًا إلينا؟!! هذا لا يناسبنا، ولا يليق بنا.

[٤٢] ثم قالوا كذبًا وزورًا: لقد كاد هذا الرجل - أي: النبي ﷺ - أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن ثبّتنا وصبرنا وصمدْنا علىٰ ذلك، ثم بين سبحانه أن هؤلاء المعاندين سوف يعلمون حين يعاينون العذاب حقيقةً من أضلُّ سبيلًا؟ هم أم الرسول ﷺ.

[٤٣] ثم قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ: انظر يانبي الله نظر المتعجّب إلىٰ هذا الذي لا يهوىٰ شيئًا إلّا اتّبعه، فهو عابدٌ لهواه، أَمِثْلُ هذا تكون أنتَ حفيظًا عليه، وتهديه؟!! ما عليك يانبي الله إلّا البلاغ، أمّا حسابه فعلينا، ومرجعه إلينا.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
ٱلظِّلَّ ۖ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ وَأَنزَلْنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَّكَّرُوا۟ ۖ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم
بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا
عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

[٤٤] أتظن يانبي الله أن هؤلاء المعاندين يسمعون سماع فهم أو يتدبرون في آياتنا؟! لا تظن ذلك، فهؤلاء كالبهائم المسلوبة الفهم والعقل؛ بل هم أحطُّ وأشدُّ ضلالًا من هذه البهائم.

[٤٥] ألم تنظر يانبي الله إلىٰ صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه، ومن ذلك أنه بسط سبحانه الظِّلّ وجعله واسعًا، من زوال الشمس إلىٰ خروجها في اليوم التالي، ولو شاء لجعله ثابتًا ومستقرًا لا تزيله الشمس، ثم جعل سبحانه الشمس علامة تدل عليه فلولا الشمس ما عرف الظل.

[٤٦] ثم بين جل وعلا أنه يُقَلِّصُ هذا الظل شيئًا فشيئًا، وهذا فيه مصالح ومنافع للناس كثيرة.

قال عالم الإعجاز الشيخ عبدالمجيد الزنداني: إن مد الظل يبدأ من زوال الشمس بعد الظهر إلىٰ طلوعها في اليوم التالي ويقبض بطلوع الشمس.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملة اعتراضية لإثبات قدرة الله تعالىٰ، وأنه قادر علىٰ كل شيء.

[٤٧] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه هو الذي تفضَّل عليكم فجعل الليل مظْلِمًا يغشىٰ الأشياء ويسترها، فتسكن فيه النفوس وتخلد إلىٰ الراحة والنوم، ومن رحمته سبحانه أن جعل النهار ينتشر فيه الناس، يعملون فيه، ويطلبون فيه أرزاقهم، ويحصِّلون فيه منافعهم.

[٤٨] واعلموا أيها الناس أيضًا أن الله جل في علاه هو الذي يُسَيِّرُ الرياح التي تحمل السحاب، فيستبشر الناس بذلك ويفرحون، وينتظرون نزول المطر المبارَك العذب الطاهر المطهِّر.

[٤٩] ثم بين سبحانه أنه يُحْيي بهذا المطر مواتَ البلاد، فيخرج النبات في المكان الذي لا نبات فيه، وينتفع به الناس فيشربون منه، ويسقون منه بهائمهم.

[٥٠] ثم أخبر جل وعلا بأنه قسَّم نزول هذا المطر بين الناس، فأنزله علىٰ أرضٍ دون أخرىٰ؛ ليتذكروا ويرجعوا إلىٰ الله ويؤمنوا به، وينسبوا الفضل إليه، فما كان من أكثر الناس إلّا الإباء والاستكبار، وجحْد نعمة الله، وذلك لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

[٥١] ثم أخبر سبحانه أنه لو شاء لبعث في كل قرية رسولًا يدعوهم إلىٰ الله وينذرهم عذابه الأليم، ولكن لفضله عليك وعلىٰ عباده كلهم، ورحمته بك وبالناس والجن قاصيهم ودانيهم أبيضهم وأصفرهم وأسودهم؛ أرسلك سبحانه نبيًّا للبشر كلهم إنسهم وجنهم، وخاتمًا للأنبياء والرسل أجمعين.

[٥٢] ولهذا أمره سبحانه وتعالىٰ أن لا يطيع الكافرين والمثبطين فيما يريدونه من أمور باطلة مخالفة لما أرسل به ﷺ، وأمره أن يجاهدهم بهذا القرآن جهادًا عظيمًا، وذلك بقراءته وتوضيح آياته والعمل بما فيه، وفي الحديث الذي أخرجه ابن ماجة في سننه: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»(١).

[٥٣] واعلموا أن الله جل وعلا هو وحده الذي أجرىٰ البحار والأنهار وأرسلها، فأرسل النهر العذب الشديد العذوبة، وأرسل البحر المالح البالغ الملوحة، فإذا التقيا فإنهما لا يمتزجان ولا يختلط أحدهما بالآخر اختلاطًا يُذهب خاصيته، وذلك بحاجزٍ حصين جعله الله بينهما، ولا يمتزجان إلا إذا ابتعدا عن المصب.

[٥٤] واعلموا أيها الناس أن الله هو الذي خلق الإنسان من هذا المني الذي يقذفه الذكر في رحم الأنثىٰ؛ ثم أنشأ سبحانه منه الأسر والشعوب وجعلهم أنسابًا وأصهارًا، وهذا يدل علىٰ كمال قدرته جل في علاه بأن خلق من هذا الماء المهين هذا الإنسان وجعل منه هذه الشعوب والقبائل؛ فتبارك الله أحسن الخالقين المبدعين.

[٥٥] يخبر جل وعلا عن جهل هؤلاء المشركين الذين يتخذون في عبادتهم آلهةً من دون الله لا تنفعهم ولا تضرهم شيئًا، وكان الكافر الجاحد بربه معاونًا للشيطان مؤيِّدًا له، مبارزًا الله بالمعاصي.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٢٢٤٦، ١٢٥٥٥)، وأبوداود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦).

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ
عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ
بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ
فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ
وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا ٦٠ تَبَارَكَ
ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا
مُّنِيرٗا ٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ
أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ
عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا
٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧

[٥٦] واعلم يانبي الله بأننا لم نرسلك للناس إلّا لتبشر من آمن ووحّد وأطاع بالثواب والفوز في الدارين، وتُنذر وتُحذّر من جحد وعصىٰ بالعقاب في الدارين، فلا تذهب نفسك حسراتٍ علىٰ من عاند وكذّب.

[٥٧] يسلي جل وعلا نبيَّه محمدًا ﷺ فيخبره أن لا ينزعج ويحزن إذا لم يلق استجابة من قومه، وأمره سبحانه بأن يقول لقومه: اعلموا أنني لا أسألكم أجرة علىٰ تبليغي وإنذاري لكم، ولكن إن هداكم الله وتوسلتم إليه بالطاعات والأعمال الصالحة من نفقه أو غيرها فإن ثواب ذلك لكم، ولست أجبركم عليه، وهذا ما أريد وأتمنىٰ أن يتحقق.

[٥٨] واعتمد يانبي الله في أمورك كلّها علىٰ الله الحيِّ الذي له الحياة الكاملة المطلقة، الذي لا يموت، ونزِّهْهُ عن النقائص، ولا تحزن ولا تأسَ علىٰ ما يفتريه المُفْتَرون؛ فكفىٰ به سبحانه بذنوب عباده خبيرًا، لا يخفىٰ عليه شيء من أمرهم، وسيجازيهم ويحاسبهم عليها.

[٥٩] يخبر جل وعلا أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وخلق ما بينهما في ستة أيام، ثم استوىٰ سبحانه وارتفع علىٰ العرش؛ استواءً يليق بجلاله وعظمته؛ وهذا الاستواء معلوم أما كيفيته فهي مجهولة ولا نعرفها؛ كما أننا لا نعرف كيفية ذاته، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا، وهو جل في علاه الرحمن؛ فاسأله يانبي الله فإنه خبير بخلقه؛ فهو خالقهم، ولا يخفىٰ عليه سبحانه أحد ممن خلق.

[٦٠] وإذا قيل لهؤلاء الكافرين الجاحدين: اسجدوا للرحمن وحده وأخلصوا له العبادة، قالوا جحْدًا وكفْرًا: وما الرحمن؟! فيزعمون أنهم لا يعرفونه، ثم يقولون تماديًا وطغيانًا: أنسجد لمجرد أنك تأمرنا بالسجود، وزادهم ذلك الأمر بالسجود بُعْدًا ونفورًا عن الإيمان والتوحيد والعياذ بالله.

[٦١] تكاثر فضله جل وعلا وتعاظمت بركته سبحانه؛ الذي خلق في السماء هذه النجوم الكبيرة، وهذه الشمس العظيمة التي تضيء، وهذا القمر الذي ينير، وجعلها مسخَّرة للإنسان؛ فسبحان من لا يَقْدِرَ قَدْرَهُ إلّا هو.

[٦٢] ثم ذكر جل في علاه أنه هو الذي خلق الليل والنهار وجعلهما يتعاقبان بتكرار؛ لمن أراد أن يتعظ ويعتبر ويتذكر أنه سبحانه لم يخلقهما عبثًا، فمن حكمة خلقهما: معرفة أوقات العبادة من صلاة أو دعاء أو صوم أو حج ونحو ذلك.

ومن حكمة خلقهما: أن من فاته وقت بسبب نوم أو بأي سبب آخر استعاض عنه في وقت آخر، ومن حكمة خلقهما: شكر الله علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ، ومن أعظم هذه النعم خلق الليل والنهار علىٰ هذه الصفة الحكيمة التي تدل علىٰ عظيم قدرته عز وجل.

[٦٣] ذكر جل وعلا أن من **صفات عباد الرحمن** الحميدة وعباداتهم المتنوعة: أنهم يمشون علىٰ الأرض بسكينة ووقار وتواضع، بعيدين عن الخيلاء والتكبر.

ومن صفاتهم: إذا خاطبهم السفهاء بجهالة أو سوء أدب فإنهم يردون عليهم بكلام طيب لا تعنيف فيه ولا استهزاء ولا سخرية، أي: أنهم يدرؤون بالحسنة السيئة.

[٦٤] **ومن صفات عباد الرحمن**: أنهم يقطعون جزءًا من ليلهم في صلاة التهجد ساجدين لله متذللين له، أو قائمين لله خاضعين له.

[٦٥] **ومن صفات عباد الرحمن**: أنهم يدعون ربهم - وجلين خائفين - قائلين: اللهم أبعِد عنّا عذاب جهنم؛ فإن عذابها لا يُطاق، فهو لازم ودائم.

[٦٦] ثم ذم جل وعلا جهنم فأخبر أنها بئست مستقرًا لمن استقر بها من العصاة الذين لم يحكم عليهم بالخلود فيها، وبئست مقامًا لمن أقام بها من المكذبين للرسل الجاحدين لدين الله الذين سيخلدون فيها أبد الآبدين.

[٦٧] **ومن صفات عباد الرحمن**: أنهم إذا أنفقوا من أموالهم النفقات الواجبة والمستحبَّة لم يزيدوا حتىٰ يصلوا حدّ التبذير، ولم يُقصِّروا في النفقة حتىٰ البخل والشح والتقتير؛ بل كانوا ينفقون باعتدالٍ وتوسّط.

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ
ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ
فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ
إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّو۟ا
بِٱللَّغْوِ مَرُّو۟ا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُو۟ا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّو۟ا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُو۟ا
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ
حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى
لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

سورة الشعراء

[٦٨] ومن صفات عباد الرحمن: أنهم ابتعدوا عن الشرك وعبادة غير الله، وابتعدوا عن قتل النفس التي حرَّم الله إلّا بالحقّ، وابتعدوا عن الزنا وعن ما حرَّم الله، واعلموا أن من تزين له نفسه ارتكاب شيء من ذلك فقد اكتسب الإثم، ووقع في الذنب العظيم.

[٦٩] ثم أخبر سبحانه أن من ارتكب هذه الذنوب والمعاصي كان ذلك سببًا في أن يُضاعِف الله عليه العقوبة في الآخرة، وسببًا لدخوله النار وخلوده فيها ذليلًا حقيرًا إذا مات علىٰ الشرك، أما من مات دون الشرك من أهل التوحيد فلا يخلَّد في النار.

[٧٠] أما من أحدث توبةً من هذه المعاصي بأن أقلع عنها، وندم عليها، وعزم علىٰ عدم العودة، وردَّ الحقوق إلىٰ أهلها، ورجع إلىٰ الله، فآمن به ووحده توحيد الطائعين، ثم عمل الأعمال الصالحة؛ فإن الله بكرمه ولطفه يغفر ذنبَه، ويستر عيبَه، ويقيل عثرتَه، ويقبل توبته، ثم يتكرّم عليه فيبدّل سيئاته التي عملها إلىٰ حسنات؛ فتبارك الله أكرم الأكرمين، واعلموا أن الله كثير المغفرة لِمَن استغفر وتاب، كثير الرحمة لمن رجع وأناب.

[٧١] واعلموا أيها الناس أن من تاب، ودلَّل علىٰ صدق توبته بالأعمال الصالحة؛ فإنه قد رجع إلىٰ ربه حقَّ الرجوع، وتلك صفات التوبة النصوح المقبولة.

[٧٢] ثم عاد وأخبر جل وعلا أن من صفات عباد الرحمن: أنهم لا يرتكبون شهادة الزور، ويبتعدون عن مجالس اللهو والفسق والغيبة والزور، والتي كثرت للأسف في هذا الزمان، والله المستعان، وأنهم إذا مروا بمجالس أهل الباطل التي يكثر فيها اللغو أعرضوا عنها تنزهًا وإكرامًا لأنفسهم وصونًا لكرامتهم.

[٧٣] ومن صفات عباد الرحمن: أنهم إذا ذُكِّروا بالقرآن، وخُوِّفوا بآيات الله؛ لم يُعرضوا عنها؛ بل أقبلوا منكبِّينَ عليها، منقادين مستسلمين لها.

[٧٤] ومن صفات عباد الرحمن أيضًا: أنهم يدعون الله قائلين: ربنا أعطنا وارزقنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقرُّ به أعيننا، وتسكن إليه نفوسنا، واجعلنا يا ربنا قدوةً صالحةً يُقْتدىٰ بها في الخير، فيكون لنا أجرنا، وأجر من اقتدىٰ بنا.

[٧٥] واعلموا أن أولئك الذين هذه هي صفاتهم من عباد الرحمن؛ سوف يجزيهم الله أحسن الجزاء، وذلك بأن يدخلهم أعلىٰ منازل الجنة وأفضلها، بسبب صبرهم ويقينهم بأن ما عند الله خيرٌ وأبقىٰ، ويُلقَّون في هذه الدرجة العالية السلام من الله جل في عُلاه، ويُلقَّون أيضًا السلام من الملائكة، ويسلم بعضهم علىٰ بعض، ويُسلمهم الله من كل ما يكدر خاطرهم، فيعيشون في نعيم تامّ، لا يكدر صَفْوَهُ شيء من المكدرات، ولا منغِّصٌ من المنغصات.

[٧٦] وهؤلاء الذين هذه صفاتهم من عباد الرحمن خالدون في هذا النعيم خلودًا أبديًّا لا يتحولون عنه ولا يزولون، وحسنت تلك الغرفة قرارًا وطابت منزلًا هنيئًا ونعيمًا مقيمًا لهم. نسأل الله الكريم من فضله.

[٧٧] وقل يا نبي الله للناس جميعًا: إن الله لا يعبأ ولا يبالي بكم؛ لولا أنكم تعبدونه وتخلصون له العبادة، واعلموا يا من كذبتم بالآخرة وبالإيمان بالله وحده وبالتوحيد فسوف يكون جزاء تكذيبكم عذابًا دائمًا ملازمًا لكم لا يفارقكم أبدًا في الآخرة.